التصوف السني عند العالم أحمد بن ثابث التلمساني (ت 1152هـ/ 1739م)

the Sunni Sufism according to the scholar Ahmed ibn Thabeth Al-Tilimsānī (d. 1152^{AH}/ 1739^{AD})

طالب دكتوراه/ محمد بومدين.
جامعة أبو بكر بلقايد –تلمسان– الجزائر.
boumedinem999@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/04/10 تاريخ القبول: 2022/06/18 تاريخ النشر: 2022/06/30

ABSTRACT:
There is no doubt that the emergence of Sufism in Algeria in general and its fame in Tlemcen in particular, was the product of scientific and mystical journeys searching for lessons and scientific and mystical license from the flags of the Islamic nation, Tlemcen abounds with brilliant names in the world of Sufism, not only during the first centuries of its resurrection in the mentioned city, but this Tabriz has continued in depth during the subsequent centuries, especially with the beginnings of the **10th/ 16th** century, and the next, where Sufism completed its mechanisms and components, In addition to his poetic and literary being, which became his mouthpiece, his exit to existence and depicted at the same time according to an aesthetic prose or poetic template, expressing the fields of vision and observation - the journey - in the midst of the expansion of Sufism in the Arab Islamic world, during the modern period of its long history. It is, then, the undisputed knowledge of Tlemcen, and its world, during the **12th/ 18th** century, Abu al-Abbas Ahmed ibn Thabeth al-Tilimçani **(d. 1152/ 1739),** who wrote the book **"ltafakur walaietibar fi fadl alsalaat ealaa alnabii almukhtar salaa allah alayhi wa salam",** and the inevitability of asceticism. In terms of Sufism.

Keywords: Algeria - Tlemcen - Sufi discourse - Abu al-Abbas Ahmed ibn Thabeth al-Tilimçani **(d. 1152/ 1739)** - Sunni Sufism-Philosophy -

12th/ 18th century - Ottoman era - The scientific and mystical journey – al–tafakur wa liaetibar fi fadl al–salat ealaa al–nabii almukhtar.

الملخص:

يعود ظهور التصوف السني في تلمسان خلال الفترة الحديثة، منذ القرن الثاني للهجرة بفضل الرّحلات العلمية والصوفية الباحثة عن حلقات الإجازة الصوفية من نخبة الأمة الإسلامية، لتشتهر حاضرة تلمسان وتزخر بأسماءٍ لامعةٍ في عالم التصوف في شكله السُني، خاصة مع بدايات القرن 10هـ/16م، والذي يليه، حيث استكمل في خِضمِ هذه السنوات، آلياته ومكوناته، ناهيك عن كينونته الشعرية والأدبية التي أصبحت لسان حاله، ضمنتها مختلف المؤلفات الصوفية والشعرية، خصوصًا إبان القرن 12هـ/18م، الذي برز فيه العالم أبو العباس أحمد بن ثابث التلمساني **(ت 1152هـ/ 1739م)**، أحد أعلام هذا النوع من التصوف، ومُؤَلَفِه **"التفكر والاعتبار في فضل الصلاة على النبي المختار محمد صلى الله عليه وسلم"**، الذي احتوى على الشيء الكثير من نفحات التصوف الإلهي وكشفت لنا سُطوره في طياتِها ولَيَاتِ كِتابِها هذا، تطورًا كبيرًا من الناحية الأدبية واللغوية، وثراء فائضًا وبعدًا دينيًا عميقًا مؤسس على حتمية الزهد الدُنيَوِي من الناحية الصوفية.

الكلمات المفتاحية: الجزائر ـ تلمسان ـ الخطاب الصوفي ـ أبو العباس أحمد بن ثابث التلمساني **(ت 1152هـ/ 1739م)** ـ التصوف السني ـ الفلسفة ـ القرن **12هـ/18م** ـ العهد العثماني ـ الرحلة العلمية والصوفية ـ كتاب التفكر والاعتبار في فضل الصلاة على النبي المختار.

المقدمة:

تعتبر مدينة تلمسان واحدة من الحواضر الفكرية الجزائرية التي اشتهر فيها التصوف، بنوعيه، الفلسفي والسني، عبر العصور. وإلى القرن **12هـ/18م**، عرف هذا التصوف تطورات مع الكثير من الشخصيات العلمية والدينية التي برزت في فنون العلوم العقلية والنقلية، ما جعل اسهاماتهم الصوفية، ممارسةً، تدريسًا، وتأليفًا، إبان هذه الفترة الزمنية، تنحو منحى رواد التصوف الإسلامي في أبجدياته، ومكوناته الروحية والوجدانية.

ومن بين هؤلاء الجهابذة الفقهاء، أبو العباس أحمد بن ثابت التلمساني **(ت 1152هـ/ 1739م)**، الذي عُرف بِعلمِ تلمسان، وفقيهها، من دون منازع، حيث انغمس بمناهجه في قالب المدارس الصوفية المنتشرة في المشرق والمغرب، في نثر المنظوم والمنثور، ضمَّنهُ في شكل أراجيز أحيانًا، وفي الأخرى نصوصا أدبية، يمدح فيها صفاته سبحانه وتعالى وارتباطها بمعالم الدنيا الفانية.

من ذلك كله، اخترنا من تآليفه تلك، أنموذج، احتوى في سطور مِسوَدَّاته، الشيء ليس بالقليل من الفروع العقلية الملتصقة التصاق علم، وتصوف، وفلسفة، في صبغتها العلاجية لمظاهر الكون ومتطلبات الإنسانية جمعاء، وطروحاتها المنهجية، على مستوى الاتصال بالله عز وجل.

على أساس هذه المنطلقات الاشكالية، وغمزات طُروحاتها المتتالية، تتنزل دراستنا هذه المتمحورة حول التصوف السني عند العالم أحمد بن ثابت التلمساني **(ت 1152هـ/ 1739م)**، والذي حاولنا من خلاله إبراز خصائص الملامح الصوفية عند هذا الأنموذج الصوفي، الذي تعلم في تلمسان خلال القرن **12هـ/18م**، وارتحل لحواضر البلدان، بحثًا عن الخلوة الصوفية، المرتبطة بالتصوف السني الذي يجعل من الحب الإلاهي منطلقات له، ومن الرِّحلة في البحث عن الشيخ المربي مرتكزًا له، ومن الزهد ينابيع يستقي منها المتصوف المريد ما يروي ضمأه، ويسقي عروقه ـ **تمثيلاً وواقعًا** ـ، بهدف الكشف والإبانة عن بصماته العلمية خلال العصر الحديث، مع تحرِّي مساراته الثقافية وجذورها، لاستجلاء خلفياتها الفكرية ومنطلقاتها الدينية، والمؤثرات الاجتماعية والسياسية المتأثرة بها، بتقديم ترجمة معتمدة على الكرونولوجيا التاريخية في معالجة الشخصيات، في وضعية طلبية تفرض علينا إماطة الأستار عن اجتهاداته داخل تلمسان وخارجها، اعتمادًا على ما حملته المادة المصدرية المهتمَّة خاصَّة بنقد أخبار معاصريها من العلماء الأفذاذ من أهل النخبة بتلمسان، مرتكزين في ذلك على المنهج السردي التحليلي. ومُركزين في أوراقه البحثية على ثلاثة أضلع. نوجز عنصرتها على شاكلة النقاط التالية:

ـ **الضلع الأول**: مخصص لسيرة ومسيرة الشيخ أبي العباس أحمد بن ثابت التلمساني **(ت 1152هـ/ 1739م)**.

ـ **الضلع الثاني**: يُسطِّر بالدراسة المعتمدة على التقييم والتحليل على المقاربات الإشكالية القائمة تاريخيًا، وإلى اليوم، بين التصوف الفلسفي والتصوف السني، من حيث الجذور ـ المنطلقات ـ التداخلات ـ التمظهرات.

ـ **الضلع الثالث**: مُكمل ومُفصل للثاني، حيث يَبحث في استقصاء مُميزات ومَلامح الخطاب الصوفي السني ورموزه الرُّوحية عند مُترجمنا.

إن التقميش بتَحَرٍّ، والبحث بتَقصِّي، في موضوع الخطاب الروحي وفلسفته الإسلامية، عند الشيخ بن ثابث التلمساني في الفترة العثمانية، لا يمكن فهمه، إلا باستحضار ترسبات الموضوع ومفاهيمه، والتطرق لنَبَعَاتِها، بالتعريف بالشيخ المذكور، والوقوف عِلاوة على ذلك على أبرز المظاهر التي صورت العلاقة المتداخلة بين التصوف الفلسفي والسني، وهو أساسٌ ارتكزنا عليه، لتطويق وتسييج مسعى هذه الدراسة، لنصِلَ إلى خصائص الفلسفة الرُّوحية وخطابها الصوفي عند هذا العالم، وِفق الشكل ذي الطَرْز المنهجي والمعرفي التالي:

1.السيرة والمسيرة العلمية لأبي العباس أحمد بن ثابث التلمساني (ت 1152هـ/ 1739م):

لقد لُوحظ في كل المصادر والمراجع التي قرأت فيها عن حياة ابن ثابت، ما لاحظه جمٌ عفير من المترجمين، الذين تعرضوا لتتبع حياته، أنه كان عصاميًا، لما اعتمد في دراساته على مطالعاته، وجهوده، وإرادته الشخصية في حب العلم والتعلم.

1 – 1. مولده ونشأته العلمية:

هو القارئ البارع، والعالم الجامع، أبو العباس أحمد بن ثابث التلمساني **(ت 1152هـ/ 1739م)**[1]. المكنى شهرةً، وتبعًا لاسمه أحمد، **"أبو العباس"**.

ينتمي هذا العالم إلى بيت علم تلمساني الأصل، يُعرف بـ: **"بيت ابن ثابت"**[2]، الذي ترجع عِترُتُهُ الأسرية إلى سلطان تلمسان، يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد **(ت 680 هـ/1282م)**.

هذا، ولم نقف في المصادر الذي بين أيدينا عن تاريخ مولده، ولو بإشارات وتلميحات، سوى ما قدم له تلميذه المباشر أبو راس المعسكري **(1238هـ/ 1823م)**، الذي قال عن نسبه وانتسابه،

أنه: «(...) **سليل السلطان أبي ثابت** (...)»[3]، وأضاف يقول: «(...) **ومن أبناء ملوكهم شيخ شيوخنا** (...)، **سيدي أحمد بن ثابت أتحفه الله بالغفران والفوز بالرضوان** (...)»[4].

1 – 2. مكانته ومنزلته العلمية بين معاصريه:

يكفي للدلالة على مكانة ابن ثابت، ومنزلته في الفقه المالكي، أن تتلمذ عليه خيرة أبناء تلمسان، وأقر له النُّخبة من صَفوة الأدباء، والشعراء، والكتاب، بالأَبْهة العلمية، والوِقار الفقهي والعلمي، على أنه كان عالمًا مشاركًا في صُنوف العلوم على اختلاف أنواعها وألوانها، فيما حلاَّه به تلميذه أبي راس الناصري، حيث قال في كتابه "**عجائب الأسفار**": «(...) **وتوغل في أساليب العلوم وأفانينها وترقى في معارف القراءات وقوانينها جبل على صنعة البلاغة دون اكتساب وتقلب في فنون العلم والتاريخ والأدب، وتمكن من علم المعاني** (...)»[5].

1 – 3. شيوخه وتلامذته:

لقد التف حول الشيخ ابن ثابت، الكثير من أهل العلم، شرقًا وغربًا، يغترفون من رحيقه العلمي، وينهلون من تراثه الثقافي، حتى ذكر صاحب "عجائب الأسفار"، أنه كان للشيخ أحمد بن ثابت الكثير من الطلبة، احتدوا حذو شيخهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنه لم يرد ذكرًا لأسمائهم، ولا لعددهم، ماعدا شخصية واحدة وردت سيرتها في المصدر نفسه، وشخصيتين ذكرهما الجبرتي في تاريخه، والرابع ارتبط اسمه بنسخة من مخطوط "**التفكير والاعتبار**..." لمؤلفنا—كما يظهر في النسخة الأزهرية– على ما سنشير له حسب هذا الترتيب بداية بالمغاربة ثم المشارقة:

فأما الأول: فهو منصور الضرير (**توفي في القرن 12هـ/18م**)، الذي قال عنه أبو رأس الناصري: «**ثم تتلمذت للشيخ منصور الضرير تلميذ شيخ شيوخنا وآخر أهل الرسوخ، أحد الأطواد الأساتيذ الثوابت، الشيخ أحمد بن ثابت** (...) **فأتقنت على الشيخ منصور القرآن**»[6]. فمن خلال هذا الكلام، نستنتج أن الشيخ منصور الضرير من أخص تلامذة الشيخ ابن ثابت، وأنه كان ماهرًا بالقرآن وأحكامه، ومعلمًا له[7].

وأما الثاني: فهو الجيلاني بن محمد بن الجيلاني بن محمد بن الهواري بن أبي عمران (**من علماء القرن 12هـ/18م**)[8]. الذي ذكره محقق مخطوط: "**الرِّسالةُ الغرَّاءِ في ترتيبِ وجوهِ القُرَّاءِ**"، "**محمود عمرون عبد العظيم**".

وأما الثالث: فهو محمد بن سالم الحفني، العارف بالله نجم الدين، أو شمس الدين محمد بن سالم بن أحمد الحفني أو الحفناوي الشافعي المصري (**ت1181هـ/1768م**).

وأما الرابع: فهو أبي الحسن علي بن موسى بن مصطفى بن محمد الحسيني المقدسي الأزهري المصري (**ت 1186هـ/1778م**).

1 – 4. شهرته:

لقد اشتهر ابن ثابت بالعلم والورع، وذاع له صيت في المشرق والمغرب، حتى قيل فيه: «(...) **وقولي: "شيخهم"، أي بواسطة أو واسطتين أو نحو ذلك. فإنه كان شيخ المغرب الأوسط بلا منازع ورئيسهم بلا مدافع، (...)، وثقة من رأيه ودينه، نفعنا الله به**»[9].

1 – 5. مؤلفاته:

إن مثل هذا العالم الذي لقب بشيخ الفقهاء والمقرئين بتلمسان القرن **12هـ/18م**، لا بد وأنه ترك ثروة علمية قيمة، ضمنها في مؤلفاته وآثاره، منها ما وصل إلينا ومنها ما لم يصل، ولكن المصادر التي ترجمت له، والعلماء الذين نقلوا عنه في كتبهم، احتفظوا لنا بأسماء بعضها، ومن أهم مؤلفاته: نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- "**الرسالة الغراء في ترتيب خلاف وجوه القراء**": وهو تأليف في علم القراءات[10].
- "**رسالة صغيرة، في التكبير بقراءة الإمام ابن كثير**": على شكل رسالة صغيرة، في التكبير الخاص بقراءة الإمام ابن كثير[11].
- "**كتاب التفكر والاعتبار في فضل الصلاة على النبي المختار**": وهو التأليف الذي مزج فيه بين العلم العقلي والعلم النقلي، والباطن والظاهر منهما، وإن كان في القراءات، إلا أن ابن ثابت خص الكثير من فقراته وشروحاتها في متن هذا المؤلف، للتصوف وقواعده الصحيحة - **التصوف**

السني ـ ومرتكزات المرِيد في تتبع طريق شيخه، وكيفية ملازمة الخَلوة، وغيرها من أسس التصوف وقواعده .

1 – 6. تصوفه:

لبس ابن ثابت ثوب الطريقة الشاذلية، إذ صرح القول في انتسابه إليها، في معرض تطرقه لفصل من فصول مؤلفه السابق الذكر، قائلاً: «**فصل في سلام القطب الغوث، إمام الأولياء، وسيد الصالحين، وشيخ العارفين، وأزهد الزاهدين، مسلك المريدين، أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا به في الدنيا والآخرة**(...)»[12].

وعن الأسس الصوفية التي أسس عليها ابن ثابت مؤلفه "**كتاب التفكير والاعتبار** ..."، فقد أشار إلى ذلك، قائلاً: «**ومن أتقن شيئا مما ذكرت آنفا فهو شريكي في أجر ما أصلح إلى يوم القرار، هذا لمن كان عارفا بعلم التصوف والكلام، وإلا فإياك الاغترار**(...) **ورحم الله من بثها في الخلق، ونشر في البلاد والعباد، وبعث بها في الأفكار**(...)»[13].

1 – 7. وفاته:

توفي الشيخ أبي العباس أحمد بن عثمان التلمساني بـ: "**جبل أترارة**"[14]، بالضواحي الشمالية الشرقية المحاذية لساحل تلمسان، سنة **1185هـ/1739م**[15]، وذلك بعد أن تم اخراجه من المدينة من قبل كرغلية[16] تلمسان، الذين على ما يبدو من كلام أبو راس الناصري، أنه لم يكن في علاقة جيدة معهم، وفي هذا الصدد، يقول: «**الشيخ أحمد بن ثابت المتوفي سنة ثمان وخمسين ومائة وألف بجبل ترارة، لما أخرجه من أرض آبائه قرغلية تلمسان** (...)»[17].

2. مقاربات بين التصوف الفلسفي والتصوف السني ـ الجذور ـ المنطلقات ـ التداخلات ـ التمظهرات:

2 – 1. بين التصوف الفلسفي والتصوف السني:

لقد ظهر التصوف في البلاد الإسلاميّة في القرن **3هـ/9م**، وظهرت له طرقًا عدّة بعضها التزم بالكتاب والسّنّة إلى حدٍّ ما وأطلق عليه التصوف السني، والبعض الآخر وقع في مخالفات شرعيّة،

وهذه المخالفات تزيد وتنقص بين طريقة وأخرى، أو بين فئة وأخرى. أطلق عليه التصوف الفلسفي.

والتصوف هو بلا ريب فلسفة الإسلام، والمتصوفة هم فلاسفة الإسلام بالتعريف المحمدي والحدود الربانية[18].

تلك هي الصلات بين الفلسفة والتصوف، التي تنحدر منها العلاقة القائمة بين التصوف السني والتصوف الفلسفي؛ فغاية الفيلسوف أن ينجلي لعقله الكون بمعارفه وأسراره، وغاية الصوفي أن تنزل على قلبه إلهامات المعرفة العامة الشاملة عن طريق العبادة، والفيلسوف يرى أن هذه غاية الغايات، أما الصوفي فيرى غاية الغايات رضا الله، والفوز بلقائه ونعيمه في الآخرة[19].

2 – 2. التصوف السني وخصائصه:

إن للتصوف السني خصائصٌ، وهو من خلالها أقرب أنواع التصوف إلى الكتاب والسّنّة، وهو بذلك يمثل التّيّار الذي اشتهر بالصّدق والزّهد بالدّنيا وزينتها، وكان يغلب على رواده الاستقامة في العقيدة الإسلامية[20]. ومن أهم خصائصهم:

ـ تميّزهم عن جمهور المسلمين وعلمائهم بمصطلحات تدلّ على نهجهم، بصورة مهّدت لظهور الطّرق لديهم بعد ذلك، مثل قول بعضهم: طريقُنا أو نهجنا أو مذهبُنا أو عِلمُنا .

ـ اشترطوا على من يرغب في السّير معهم وفي طريقتهم أن يتخلى عن ماله، وأن يتقشّف في طعامه وغذائه، وأن يهجر الزّواج مادام في طريقته وسلوكه[21].

ـ كثرة قصصهم ووعظهم مع قلة علمهم وفقههم في الدّين، بل وتحذيرهم من تحصيله، واقتداء أكثرهم بسلوكيّات نسّاك ورهبان أهل الكتاب[22].

ـ ادّعاءاتهم بظهور الخوارق لديهم، والكشف، والأحاديث المناميّة، وبعض العادات والمقولات المعروفة عند أهل الكلام[23].

وبناءًا عليه، يمكننا من هذا المنطلق أن نسقط هذه المميزات على المنهج الصوفي لابن ثابت التلمساني، لاستجلاء ملامح التصوف السني عند الرجل من جهة، واستنباط مفاهيمه ومعانيه من كتابه "**التفكير والاعتبار**" من جهة ثانية.

3. ملامح من الخطاب الصوفي السني عند ابن ثابت التلمساني (ت بعد 1204هـ/ 1780م):

ما عهده مجمل رجال الصوفية في المغرب العربي، وفي تلمسان على وجه التحديد، هو ارتباطهم وتعشقهم بالحب والعشق الإلهي ـ لا الحب العذري ـ، وبذلك لا ينفك أن يخرج الخطاب الصوفي لهؤلاء عن موضوع واحد في أغلبه، وهو عشق الذات الإلهية، ليرسم جمالية الحب الروحي، الذي يسعى دومًا لرضى المحبوب وحده دون غيره(24).

فوحدة الموضوع في الخطاب الصوفي حول حب الذات الإلهية، أدت إلى خلق أخيلة عديدة تصور لنا رؤية المعشوق، فتارة نجد روح الذات الإلهية قد حلت في عاشقها، فإن أنت نظرت إلى المتصوف نظرت إليها، ومرة نجد الذات الصوفية من فرط عشقها الذات الإلهية قد تألهت(25).

فابن ثابت بمثل ابن عربي في هذا المضمار، يذهب في تفسيره لهذا الكون انطلاقًا من ثنائية الخالق والمخلوق، فيجعل من ثنائية الحق والخلق، واحدة لها وجهان، الباطن الحق والظاهر الخلق، وهذان الوجهان لا يؤديان إلى ثنائية الله والعالم، وإنما العالم تنطبق عليه صفات الله، والعالم ظل الله برأيه؛ وليس له وجود مفارق، بل وجوده المفارق وهمي من صنع العقل.

وعليه، جعل ابن ثابت تجربة التجرد من ملذات الدنيا التي تعشقها النفس مرَاتِبَا، حتى إذا تجرد الإنسان من كلها ارتدى ثوب العشق الإلهي، وهي مرتبة يهب فيها الصوفي ذاته لربه كليًا، بعد تجرده من حب النفس والدنيا، ليكون بذلك المتصوف في هذا المقام أقرب إلى ربه ونيل رضاه، وينكشف له الحق، فيصير بمنزلة الملازم له(26).

وقد أجمع المتصوفة ومن ضِمنهم ابن ثابت، على أن يسموا الحياة الروحية عبر هذه المراتب، سفرا، والصوفي الذي يأخذ في السعي للوصول إلى الله، يسمى سالكا، أو مسافرا، وهذه المراتب أو المقامات التي يعبرها المتصوف إنما بها يتحقق السبيل إلى الله. وعلى الرغم من اختلاف شيوخ الصوفية في مراتب هذه المقامات وعددها فإن أشهرها: التوبة، الفقر، الصبر، التوكل، الوعظ(27).

وهذه المقامات، يُعرِّفها ابن ثابت في مؤلفه التفكير والاعتبار، وبالخصوص منها في باب الروحية الدينية، أنها بمعنى الثبات في المكان، فإن انتقاله ـ المتصوف ـ إلى التصوف حسب ابن ثابت، كان من باب المجاز لينتقل من معناه المادي إلى اللغوي، ليدل على حالة من حالات السلوك وترويض

النفس، كأن يكون تدريب النفس على التوكل أو الزهد أو الورع وغيرها. ذلك لأن صعوبة انسلاخ العبد من ملذات الدنيا في طريق توبته إلى الله لا يكون إلا بالترويض للنفس لتألف بعد مجاهدتها كل مقام، الواحد تلو الآخر.

فالتوبة عند ابن ثابت؛ هجرة معاصي الدنيا، والورع؛ الخشية من الله كأنك تراه، والزهد؛ ترك لذائذ الدنيا الفانية، طمعًا في لذات الآخرة، والفقر؛ ترك يد الزاهد الدنيا والملكية المادية الدُنيوية، والصبر في هذا الحال من أجل لذة المحبوب(28).

ويعتبر المكان في الخطاب الصوفي، فضاء يعبر المتصوف عن حاله التي صار عليها بعد توبته إلى ربه، لنجد معظم خطابات ابن ثابت الواردة في مؤلفاته، تتضمن ثنائية مكانية بين مكان مادي محسوس، ومكان معنوي روحي، يمثل الأول دار الدنيا، ويمثل الثاني عالم الغيب الذي ينكشف للمتصوف شيئا فشيئا رحلته الطويلة إلى ربه، متنقلاً بين المقامات. هذه الرِّحلة التي تنطبق معالمها **"ماهاة السورة القرآنية"**، والثانية هي **"الشمس"** رمز لنور الله على ما ذكره ابن ثابت في مؤلفه المذكور، فالخطاب هنا عند ابن ثابت خطاب ـ **روحي روحي** ـ، بمعنى لا دنيا فانية مؤثرة في كلامه.

ويمنح ابن ثابت خطابه الروحي، رمزية الزمان في ترتيب الأحداث ـ الحوادث ـ التي لا يمكنها أن تتأتى في لحظة واحدة، بل لابد أن يفرقها الزمن، لتكون الأحداث منضودة بعضها إثر بعض، لا بعضها فوق بعض، فنلاحظه يستعمل أشكال الزمن الطبيعية، كالشروق والغروب، فشروق الشمس ما هو إلا استمرارية ضياء الحبيب التي هي الذات الإلهية على مدار الزمن ـ **مع فصل بين شروق الطبيعة والشروق الإلهي** ـ.

وفي رِحلة الطريق إلى الله عبر هذه المقامات، تبثُّ في النفس الزاهدة عن الدنيا الطامعة في نيل رضى الخالق أحوال من لدن الله رضى بما يصنع العبد لأجل ربه، يحسها العبد كلما زاد في تقربه إلى الله من عمل صالح(29)، وهذه الأحوال هي: المراقبة، القرب، المحبة، الخوف، الرجاء، الشوق، الأنس، المشاهدة، اليقين. وهي أحاسيس عبر عنها تصوف ابن ثابت من مدركات الخلجات

الحسية التي تختلج صدر الزاهد في طريقه إلى ربه حتى إذا وصل إلى آخر مقام، أحس يقينا بأنه على مقربة من الله، غائبا كل الغياب عن الدنيا(30).

وعلى أساس هذه الرؤية الصوفية للكون، وتفسير ثنائية الوجود بين الخلق والخالق، نظم ابن ثابت شعره ونثره عبر تجاربه الروحية. بحيث آمن ابن ثابت كغيره من علماء التصوف، بأن الذات الإلهية يجب أن تتقدم الذات الإنسانية؛ أي أن حب الله تعالى أولى من حب النفس، يقينًا وعملاً، إذ وعلى أساس هذه الرؤية الصوفية، وتفسير ثنائية الوجود، وضح ابن ثابت طريقه الصوفية من دار الدنيا إلى الله، ليُكوِّن لنفسه عالما روحيًا غير الذي كان يعيشه، بعد أن تعلق بالذات الإلهية، فكانت له خمرة أخرى، وعشق آخر، أعلى من الذي عهده في الإلهيات الحسية، فانتقلت موضوعاته من الخطابات المادية إلى خطابات روحية محضة، تنوعت بين العشق الإلهي، ورؤية الحق، والموعظة، والحكم.

إن ابن ثابت، سلك مسلك المتصوفة الذين ترعرعوا في التصوف الإسلامي، ونَمَو في أحضانه، وتربوا في كنف الإسلام، واستمدوا أصولهم الرُّوحية من منبعه الصافي، ليُقِيمَ ابن ثابت مذهبه الصوفي على أصول الدين الإسلامي، وتعاليمه، وتوجيهاته، واستمسك بأخلاق وآداب رسول الله صلى الله عليه وسلم، على ما ألفه في ذلك، من تآليف تنم عن ارتباطه بالإله الواحد، وأصل الشريعة الإسلامية السمحاء، من ضمنها تأليفه: "**التفكير والاعتبار**...". المرتكز على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي ختام هذه الجولة التاريخية المتواضعة في فلسفة التصوف السني عند أحد أقطابه في تلمسان خلال العهد العثماني. والقراءة الاستنتاجية المتأنية لمؤلف الشيخ ابن ثابت "**التفكير والاعتبار** ..."، تمكنا من الوقوف على نتائج محصلتها. نسجلها بإيجاز فيما يلي:

1) لا يختلف اثنان في أن أفكار ابن ثابت الصوفية، وخطاباته، تعكس صورة هذا الوجود في نظر الصوفي، كما يراه هو، لا كما يراه غيره، وإن تجربته الإنسانية تبقى خالدة وإلى الأبد، وبالنسبة للآراء المتضاربة حول التجربة الصوفية بين رده إلى مذهب ديني روحي، وبين كونه إبداعًا فلسفيًا راقيًا، فإن الحقيقة التي لا يجب إغفالها في هذا المضمار الجدلي ـ الصوفي الفلسفي ـ هو أن ابن

ثابت حمل راية التصوف السني إلى كونه تراثًا إسلاميًا عالميًا، يجب السير عليه لتفكيك مظاهر الوجود، بالاستناد إلى التجربة والمعايشة الروحية الإلهية في إطار ما يُعرف بالفلسفة الإسلامية والتصوف السني.

2) تكمن جمالية الخطاب الصوفي عند ابن ثابت في وحدة موضوعه اتجاه ثنائية الخالق والمخلوق، والتي هي الذات الإلهية، ما جعله يسلك مسلك الصوفية الذين جعلوا الذات الإلهية في أرقى صورها حسب الذات العاشقة ـ الحب الإلهي ـ.

الهوامش:

(1) يحي ولد سيدي أحمد، **ببليوغرافيا تلمسان 1400 عنوان الإنتاج المعرفي لعلماء تلمسان على مدى 10 قرون**، دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص: 157.

(2) **بيت ابن ثابت التلمساني**: هو فرع من فروع شرفاء سيدي داود بن المولى إدريس الأزهر. ينظر: أحمد الادريسي الشيباني، **مصابيح البشرية في أبناء خير البرية**، (د.م.ط)، (د.ت)، 1987، ص: 258.

(3) أبو راس محمد بن أحمد الناصري البرجي (ت 1238هـ/ 1823م)، **فتح الإله وَمنته في التحدثِ بفضل ربي ونعمته**، تحقيق: الجزائري محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص: 42.

(4) نفسه، ص: 42.

(5) أبو راس محمد بن أحمد البرجي الناصري (ت 1238هـ/ 1823م)، **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، (ج2)، تحقيق: محمد غالم، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، الجزائر، (د.ت)، ص: 122.

(6) نفسه، ص: 56.

(7) منصور كافي، **تقييد على قراءة الإمام نافع المدني من روايتي عيسى قالون وعثمان ورش للإمام الشيخ محمد بن علي بن محمد بن أحمد المعروف بابن توزينت العبادي التلمساني (ت1118هـ/1708م) ـ دراسة وتحقيق**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية، غير منشورة، قسم أصول الدين، تحت اشراف: بوحلفاية خالد، جامعة الحاج لخضر ـ باتنة ـ، (2007 ـ 2008)، ص: 24.

(8) أبو العباس أحمد بن عثمان بن ثابت التلمساني (ت 1152هـ/ 1739م)، **الرِّسالةُ الغرَّاءِ في ترتيبِ وجوهِ القُرَّاءِ**، تحقيق: محمود عمرون عبد العظيم، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، الجيزة، 2006، ص: 15.

(9) أبو راس محمد بن أحمد البرجي الناصري (ت 1238هـ/ 1823م)، **فتح الإله وَمنته في التحدثِ بفضل ربي ونعمته، مصدر سابق**، ص: 42.

(10) أبو العباس أحمد بن عثمان بن ثابث التلمساني (ت 1152هـ/ 1739م)، **مصدر سابق**، ص: 32.

(11) نفسه، ص: 33.

(12) أبو العباس أحمد بن عثمان بن ثابث التلمساني (ت 1152هـ/ 1739م)، **التفكر والاعتبار في فضل الصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي المختار صلى الله عليه وسلم**، اعتنى به: دلال أحمد عبد الرحمن، توزيع مكتبة نور الهداية، حلب، 2008، ص: 13 ـ 14.

(13) نفسه، ص: 13 ـ 14.

(14) **جبل أترارة**: جبال ترارة عبارة عن سلسلة ساحلية في الامتداد الغربي للأطلس التلي، تظهر هذه الكتلة الصخرية كقوس جبلي يربط بين البحر الأبيض المتوسط من الشمال، ووادي التافنة من الشرق، ووادي مويلح من الجنوب، ووادي قيس إلى الغرب الذي يحدد الحدود الجزائرية المغربية. ينظر: المدني أحمد توفيق، **كتاب الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ص: 163.

(15) وقيل أنه توفي بتونس سنة **1152هـ/ 1739م**.

(16) **جمع كرغلي**: مصطلح ينقسم إلى قسمين، كورو: بمعني عبد، وأوغلي: معناه ابن، فيصبح المعنى: ابن عبد. والكرغلي هو من كانت أمه جزائرية وأبوه تركي.

(17) أبو راس محمد بن أحمد البرجي الناصري (ت 1238هـ/ 1823م)، **فتح الإله وَمنته في التحدثِ بفضل ربي ونعمته، مصدر سابق**، ص: 42.

(18) حضرة خان عنايت، **تعاليم المتصوفين**، ترجمة: ابراهيم استنبولي، دار الفرقد، سورية، 2008، ص: 51.

(19) احسان ظهير إلاي، **التصوف ـ المنشأ والمصادر** ـ، إدارة ترجمان السنية، باكستان، 1986، ص: 46.

(20) عبد الرحمن بدوي، **تاريخ التصوف الإسلامي: من البداية حتى نهاية القرن الثاني**، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الثانية 1978، ص 15 – 16 بتصرف.

(21) نفسه، ص: 17.

(22) نفسه، ص: 17.

(23) نفسه، ص: 17.

(24) نفسه، ص: 17.

(25) أبو اليزيد أبو زيد العجمي، **التوحيد بين التصوف السني والتصوف الفلسفي، إشارات ودلالات**، (دط)، (دت)، ص: 93.

(26) بدران بن الحسن، **"فلسفة وحدة الوجود بين ابن عربي واسبينوزا"**، حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد: 10، ص: 49.

(27) نفسه، ص: 54.

(28) نفسه، ص: 54.

(30) محروس سيد أحمد محمد، **نظرية الاتصال بين التصوف السني والتصوف الفلسفي**، مكتبة الثقافة الدينية، 2009، ص: 58.

(31) عبير عزت حلمى، **الاغتراب بين التصوف السنى والتصوف الفلسفى**، كلمة للنشر والتوزيع، 2010، ص: 74.